أثر الاعتزال في التوجيه النحوي للقراءات القرآنية حتى القرن السادس الهجري

د. عبد المجيد أحمد فلاح

ملخص البحث:

المعتزلة فرقة من فرق المسلمين نشأت في العراق على يد واصل بن عطاء (ت١٠٥هـ)، اعتمدت على العقل والجدل في تأكيد أصولها وترجيح عقيدتها، وكان لها طرق عدّة في البرهنة على صحة ما ذهبت إليه من معتقدات ، خالف فيها أصحابُها جماعةَ المسلمين، فاستعانوا بالنحو والصرف والبلاغة وبعض القراءات لتوجيهها الوجهةَ التي تنصر مذهبهم، فوقفوا عند هذه الآيات، وقلّبوا وجوهها المختلفة حتى تستقيمَ لهم دليلاً على سلامة أصولهم ومذهبهم، ونظروا في القراءات التي تنصر قولهم في أصولهم الخمسة، ووجهوها التوجيه المناسب لهم. من هذه القراءات ما كان صريحاً أو يحتاج إلى توضيح، ومنها ما يدلُّ ظاهرُه على خلاف معتقداتهم؛ ممّا جعلهم يجتهدون في إيجاد السبل للخروج من هذا التعارض بمختلف أدوات التأويل، وكان التوجيه النحوي لبعض هذه القراءات أحد هذه الأدوات التي استخدموها تأييداً لمذهبهم ونصرته والدفاع عنه.

مقدمة:

حاول أهل كل مذهب من المذاهب الكلامية، وأهل كل فرقة من الفرق الانتصار لمذهبهم أو فرقتهم، مستخدمين كل ما أوتوا من براعة في الكلام أو قوة في الاحتجاج والاستدلال، جاعلين اللغة والنحو والبلاغة وعلم القراءات وغير ذلك خاضعةً لهم، يرومون بها نصرة مذهبهم ومعتقدهم، وإنْ أدّى ذلك إلى ليٍّ الكلام عن موضعه على ما فيه من التكلّف والتعسّف.

ومن هذه الفرق كانت "المعتزلة" والاعتزال عقيدةٌ عقليّةٌ، وحركةٌ من أكثر الحركات الفكرية في التاريخ الإسلامي إثارة لجدلٍ لا يزال تسمع له أصداء حتى عصرنا الحاضر، والمعتزلة فرقةٌ دينيةٌ نشأت في العراق على يد واصل بن عطاء، ثم انتشرت فِكَرُها التي تنادي بالحرية والاختيار، وتعتمد على العقل والجدل، ولهذا لُقِّبَ أصحابها بـ "أحرار الفكر" لتشبثهم بمبدأ حرية الرأي وتقديسهم سلطان العقل، متأثرين تأثرا كبيراً بالفلسفة اليونانيّة[١] وتجمع عقيدَتَهم أصولٌ خمسة، على كلٍّ معتزليّ القول بها، وليس يستحقُّ أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بها: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا كملت فيه هذه الخصائص فهو معتزليّ[٢]، وقد ظهر بين هؤلاء علماء نحويون منهم قطرب (ت٢٠٦هـ) وأبو سعيد السيرافي (ت٣٦٨هـ) وأبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) وابن جنّي (ت٣٩٢هـ) والزمخشري (ت٥٣٨هـ). بذل هؤلاء مجهوداً عقليّاً شاقّاً لخدمة آرائهم وعقيدتهم، ولهم في تأويل الآيات القرآنية على مقتضى عقيدة الاعتزال أفانين وطرائق كثيرة، ذلك أنهم وجدوا في هذا التأويل سبيلاً يلجؤون من خلاله إلى تأييد أصولهم ومبادئهم بكل ما استطاعوا من فكر وبيان ووسائل، وكان من بين هذه الوسائل اعتمادهم في تأويل بعض الآيات على ما جاء فيها من قراءات، فكانوا أحياناً يأخذون بإحدى القراءات الشاذّة، وأحياناً بإحدى القراءات المشهورة، بحسب ما تُفضي إليه إحدى القراءتين من معنى يعضُدُ ما يؤمنون به.

ومن المعروف أنَّ القرآن الكريم نزل بلغة عربية فصيحة غاية في الفصاحة والبلاغة والبيان، وقد رويت فيه قراءات عديدة لا تخرج في بنائها اللغوي عمّا عرفه العرب في تراكيبهم وأساليبهم، ولكنَّ أصحاب المذاهب الإسلاميّة ـــ والمعتزلة واحدة من هذه المذاهب ـــ وجّهوا بعض هذه القراءات وجهة تؤكّد أصول مذاهبهم، ولو اضطروا في ذلك إلى التعسّف والتمحّل والابتعاد في التأويل.

ترك المعتزلة مؤلفات كثيرة في مختلف

العلوم الفكرية والدينية واللغوية والنحوية والأدبية، وظهرت لهم تفاسير كثيرة، كانت تصبُّ جميعها في خدمة الاعتزال، منها "تنزيه القرآن عن المطاعن" للقاضي عبد الجبار، و"الأمالي" للشريف المرتضى، و"الكشاف" للزمخشري وغير ذلك، وسيتناول هذا البحث كلَّ أصل من أصول المعتزلة، محاولاً التعريف به بإيجاز، ثم يبحثُ في القراءات القرآنية التي لجأ إليها أهل الاعتزال ووجهوها توجيهاً نحويّاً يُمَكِّنون من خلاله مذهبَهم ويدافعون عنه.

الأصل الأول: التوحيد :

وهو لبُّ مذهبهم، بَنَوا عليه فروعاً كثيرة، منها استحالةُ رؤية الله تعالى يوم القيامة، وأنَّ الصفات ليست شيئاً غيرَ الذات، وتنزيه الله عن أي مشابهة بينه وبين البشر، وغير ذلك٣، ففي قوله تعالى:(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)٤ جاء المصدرُ (تكليما) مؤكّداً للفعل (كلّم) رافعاً لاحتمال المجاز؛ لأنه جاء بلفظ الفعل ومعناه، قال ثعلب:" لولا التأكيد بالمصدر لجاز أن يكون كما تقول : كلّمت لك فلاناً، أي أرسلتُ إليه أو كتبت له رقعةً"٥ وهذا لا يتَّفقُ ومعتقد المعتزلة في تنزيه الله – عزَّ وجلّ– عن الصفات، فذهب بعضهم ليحمل التوكيد على المجاز، يقول ابن جنّي: "(وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) برفع (الله) ونصب (موسى) منْ هذا الوجه يكون مجازاً على ما مضى"٦، ومنهم مَنْ حمل الآية على معنًى بعيد، وهو خَلَقَ الله لموسى كلاماً، وهذا ما ذهب إليه الأخفشُ٧ وتبعه فيه ابن جنّي في رأي آخر٨. أمّا الزمخشري فقد اختار قراءة يحيى بن وثّاب والنخعيّ٩، وهي من الشواذّ، وترك القراءة الصحيحة لينصر مذهبه الاعتزالي، حيث أخذ بقراءة نصب لفظ الجلالة (الله) على المفعوليّة، ورفعِ (موسى) على الفاعليّة.

والزمخشري أيضاً سيراً على معتقده في نفي التشبيه والتجسيم عن الله تعالى يقدّر مضافاً محذوفاً، وهو (طاعة) في قوله تعالى: (يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ)١٠ فيقول:" (فرطت في جنب الله)على معنى فرطت في ذات الله، فإن قلت فمرجع كلامك إلى أن ذكر الجنب كلا ذكر، سوى ما يعطي من حسن الكناية وبلاغتها، فكأنه قيل: فرّطت في الله، فما معنى فرّطت في الله؟ قلت: لا بد من تقدير مضاف محذوف، سواء ذكر الجنب أم لم يذكر، والمعنى: فرطت في طاعة الله وعبادة الله وما أشبه ذلك، وفي حرف عبدالله وحفصة١١: (في ذكر الله)"١٢ فنراه يقوي ما ذهب إليه بما جاء في قراءة عبدالله وحفصة.

وقد بحث المعتزلة في قوله تعالى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ....)١٣ ووجد نحاتهم ومفسروهم في هذه الآية متّسعاً من القول في نصرة مذهبهم، وقد جاء في الآية ثلاث قراءات، تأولوها تأولا نحوياً منسجماً واعتقادهم أن الإسلام الذي يرتضيه الله لعباده هو القائم على الاعتزال، والقراءات الثلاث١٤ هي:

- فتح همزة (أنَّ) في (شهد الله أنَّه..) وكسرها في (إنَّ الدين).
- فتح همزة أن الأولى، وفتح همزة أن الثانية.
- كسر همزة إن الأولى وفتح همزة أن الثانية.

تأوّل أبو عليّ هذه الآية حسب القراءة الأولى مبيناً أن كسر همزة (إن) الثانية دليل على أن معنى الآية قد تم عند قوله (العزيز الحكيم) ثم جيء بالآية التالية المصدّرة بـ (إن) لتأكيد المعنى الذي ذكره الله تعالى وهو معنى التوحيد، وقد كان العدول عن فتح همزة (إن) الثانية وهو الوجه فيها؛ لأنها وما بعدها في تأويل مصدر معمول لفعل الشهادة، كان هذا العدول لأن هذا النحو من الكلام الذي يراد به التنزيه والتقرّب إلى الله يكون أبلغَ في الثناء وأذهبَ في المديح إذا جاء بجمل متباينة١٥. وقد تابع الزمخشري أبا علي في تخريج هذه القراءة، فقال: " وقوله (إن الدين عند الله الإسلام) جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى. فإن قلتَ: ما فائدة هذا التوكيد؟ قلتُ: فائدته أنَّ قوله (لا إله إلا هو) توحيد، وقوله (قائما بالقسط) تعديل، فإذا أردفه قوله (إن الدين عند الله الإسلام) فقد آذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد... وما عداه فليس عنده شيءٌ من الدين..."١٦.

أما القراءة الثانية بفتح همزة أن الأولى والثانية فتأولها أبو علي قائلاً ما معناه إن الجملة الثانية بدل مما تقدمها، وهو بدل كل من كل، وقد أجاز أن تكون (أن) وما بعدها في تأويل مصدر بدل من أحد أمرين:

- أن تكون بدلاً من قوله تعالى: (أنه لا إله إلا هو) فيصير تقدير الآية: شهد الله أن الدين عند الله الإسلام، وهذا تأكيد لما ذهب إليه في القراءة الأولى من أن أصحاب التوحيد هم المسلمون حقاً،

ومن خالفهم فهو خارج عن الإسلام.

- وإن شئت جعلته بدلا من القسط لأن الدين الذي هو الإسلام قسطٌ وعدلٌ، فيكون من البدل الذي الشيء فيه هو هو.١٧ وتابعه الزمخشري في تأويله، ووجّه القراءة الثالثة بقوله: " وقرئ الأول بالكسر والثاني بالفتح على أن الفعل واقع على (أن) وما بينهما اعتراض مؤكّد، وهذا أيضاً شاهدٌ على أن دين الإسلام هو العدل والتوحيد، فترى القراءات كلّها معاضدة على ذلك"١٨ فجميع القراءات التي ذكرت تأولها أبو علي والزمخشري، وانتهيا إلى نتيجة واحدة، وهي أن مذهب الاعتزال مذهب التوحيد والعدل هو الإسلام الصحيح، وكل ما عداه هو الضلال، وراحا يعضّدان أقوالهما ببعض القراءات التي وجهاها توجيهاً نحوياً يؤكّدُ ما اختاراه وذهبا إليه.

ومن المسائل التي فرّعها المعتزلة من هذا الأصل مسألة تنزيه الله عن المخادعة، فذكروا قوله تعالى: (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ...)١٩ والله تعالى لا يجوز أن يُخدع، ولا يجوز عليه سبحانه وتعالى أن يخدعَ عباده، فكيف تأوّل المعتزلة هذه الآية؟ ذكروا فيها وجهين؛ أحدهما ما قاله الزمخشري إن فعل (يخادعون) معناه يخدعون؛ لأن صيغة (فاعلت) قد تأتي بمعنى صيغة (فَعَلَتْ) وقد أوثرت فاعلت على فعلت لعلة بلاغية٢٠، والزمخشري هنا متابع لأبي علي الفارسي الذي ذكر في الآية قراءة أخرى تؤيّد مجيء صيغة فاعلت بمعنى فَعَلَتْ، وهي (يخدعون)٢١. وبهذا يؤكد أن مخادعة الله أمر مردود وغير ممكن؛ لتنزّه الله المطلق.

الأصل الثاني: العدل:

تعمّق المعتزلة في فهم هذا الأصل، وأثاروا حوله مسائل كثيرة وفروعاً شتّى، منها أن أفعال العباد لم يخلقها الله تعالى، لا خيرها ولا شرها، ومنها أن الله عادلٌ منزّهٌ عن ظلم عباده، ومنزّهٌ عن خلق الشر وعن الإضلال، فهو يريد لعباده خير ما يكون٢٢ ، فراحوا يختارون ويوجّهون القراءات الوجهة التي تحقق أهدافهم في تعزيز مذهبهم الاعتزالي هذا، فإذا أرادوا أن يؤكّدوا أن الله تعالى لا يظلم عباده تناولوا قوله تعالى: (قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)٢٣ تناولوا هذه الآية بالبحث والتأويل، فظاهر الآية على قراءة الجمهور مُشكِلٌ، ووفق رأي المعتزلة كما يقول ابن جنّي ربما يوهم من يضعف نظره من المخالفين أنّه يعذّب من يشاء من عباده، أساء أو لم يُسِئ، وهذه القراءة تحتاج إلى تأويل وتقدير محذوف، حتى لا تتعارض ومعاني العدل المعتزلي؛ لأنها أغفلت علّة الإصابة بالعذاب، وجعلتها متعلّقة بمشيئة الله، وإلا كان الله حسب ظاهر الآية – تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً- ظالماً لعباده، أو أن الله تعالى يصيب بعض عباده بالعذاب دون وجه حق، وهذا مما لا يجوز عليه سبحانه وتعالى؛ لذا نرى المعتزلة يستعينون في تأويلها بقراءة شاذّة هي :(قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَساء)٢٤ - بالسين المهملة - يقول ابن جنّي: "هذه القراءة أشدُّ إفصاحاً بالعدل من القراءة الفاشية التي هي (مَنْ أَشَاءُ)؛ لأن العذاب في القراءة الشاذة مذكورٌ علّةُ الاستحقاق له، وهو الإساءة، والقراءة الفاشية لا يُتناولُ من ظاهرها علّةُ إصابة العذاب له، وإن ذلك لشيء يرجع إلى الإنسان، وإن كنّا قد أحطنا علماً بأن الله تعالىلا يظلم عباده، وأنه لا يعذّبُ أحداً منهم إلاّ بما جناه واجترمه على نفسه...إلخ"٢٥، وهنا نلاحظ أن ابن جني قد صرّح بوضوح بأن هذه القراءة تنصر مذهبه، بل رجّحها على قراءة الجمهور، ورآها أظهر في بيان علّة استحقاق العذاب. وذكر أبو حيّان "أنَّ للمعتزلة تعلّقاً بهذه القراءة من جهة إنفاذ الوعيد، ومن جهة خلق المرء أفعالَهُ، وأن (أساء) لا فعلَ فيه لله تعالى"٢٦. إذ هم يفزعون إلى القراءات الشاذّة، في أحايين كثيرة، ليقووا بها مذهبهم، وأحياناً يأخذون بإحدى القراءات المشهورة، فهم يعوّلون على القراءة التي تعضّدُ ما يؤمنون به سواء أكانت شاذّة أم متواترة.

ومن هذا الأصل – العدل – فرَّعوا مسألة تنزيه الله تعالى عن خلق الشر، فذكر نحاتهم ومفسروهم قوله تعالى: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ × مِن شَرِّ مَا خَلَقَ)٢٧ وذكروا في تأويله وجهين في إعراب (ما)؛ الوجه الأول ذكره القاضي عبد الجبار٢٨ وذهب إلى أن (ما) حرف مصدري، ومنع كونها اسماً موصولاً لئلا يؤدي ذلك إلى معنًى قبيح على الله تعالى، وهو أنَّ الله يخلق الشرَّ، والمراد في الآية هو: قل أعوذ برب الفلق من شرِّ خلقِ الله، وليس المراد فيها: قل أعوذ برب الفلق من الشرِّ الذي خلقه الله، فالشر يضاف -على تقدير (ما) مصدرية- إلى فاعليه من مخلوقات الله. أما إذا قلنا إن (ما) موصولية فإن إضافة الشر حينذاك ستكون إلى الله وهو منزَّهٌ عن ذلك، وقد تابع الزمخشريُّ٢٩

القاضي عبد الجبار في تأويل الآية. والوجه الثاني أن تكون (ما) نافية، وذلك في قراءة٣٠ (من شرٍّ ما خلق) بالتنوين، ومعنى الآية على هذا الوجه: من شرٍّ ما خلقه الله بل خلقُهُ، قال ابن عطيّة: "وهي قراءة مردودة مبنيّة على مذهب باطل، فالله خالق كلّ شيء"٣١، وقال مكي بن أبي طالب القيسي: "وقد فارق عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة جماعة المسلمين فقرأ بالتنوين ليثبت أن مع الله خالقين يخلقون الشر"٣٢.

ومن المسائل التي لا تنفصل عن العدل المعتزلي مسألة حرّية الإنسان وتمكّنه من خلق أفعاله؛ لأنَّ ذلك ينفي الظلم والجور عن الله تعالى، فالإنسان لو لم يكن خالقاً لأفعاله حرّاً فيها لكان مجبراً على فعلها حسب زعمهم، والعقل يحكم بأن محاسبةَ المضطر ظلمٌ، واللع تعالى منزّهٌ عن ذلك، إذن فالإنسان كما يرى المعتزلة قد يشارك الله في خلق بعض الأفعال، ولا سيّما القبيحة منها، التي لا يجوز إسنادها إلى الله تعالى، فيسندونها إلى فاعليها من البشر، وبناء على ما سبق تعددت آراء النحاة والمفسرين في قراءة (كل) من قوله تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)٣٣ فالقياس النحويُّ رفعُ (كلٌّ) لأنه جملة في موضع الخبر، لكنَّ أحداً من القرّاء السبعة لم يقرأ به، إنما قرؤوا بالنصب، قال السيرافي: "فإن قال قائل قد زعمتم أن نحو: إنّي زيدٌ كلّمته، الاختيار فيه الرفع؛ لأنه جملة في موضع الخبر، فلمَ اختير النصب، وكلام الله تعالى أولى بالاختيار؟ فالجواب أنَّ في النصب ههنا دلالة على معنًى ليس في الرفع، فإنَّ التقدير على النصب: إنّا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر، فهو يوجب العموم، وإذا رفع فليس فيه عموم، إذ يجوز أن يكون (خلقناه) نعتاً لـ (شيء)، و(بقدر) خبراً لـ (كل)، ولا يكون فيه دلالة على خلق الأشياء كلها، بل إنما يدلُّ على أنَّ ما خلقه منها خلقه بقدر"٣٤ . فالمعنى مع النصب جاء تامّاً، يؤدي إلى أن الله تعالى يخلق كلَّ شيء على الإطلاق، ومع الرفع ينقص المعنى، ويؤدي إلى أنَّ الله تعالى لا يخلق كلَّ شيء، إذ هماك أشياءٌ لا يخلقها؛ لأن هذه القراءةتقيّد مخلوقات الله بأنها بقدر، وليس كلّ ما في الوجود مخلوقاً بقدر، فكان إجماع القرّاء السبعة على نصب (كل) حجّةً على مذهب المعتزلة الذين يذهبون إلى تقسيم المخلوقات إلى مخلوقات لله، ومخلوقات لغير الله. وقد دافع ابن جنّي – انتصاراً لمذهبه- عن قراءة الرفع الشاذّة٣٥ قائلاً إنها أقوى من قراءة النصب، وذلك أنَّ موضع (كل) في الآية من مواضع الابتداء، فاقتضت الرفع، كقولنا: زيدٌ ضربته، فاكتفى الفعل بمفعوله ولم يعمل بما قبله، وأصل الكلام: إن (كلّ شيء) خبر عن مبتدأ، على تقدير نحن كل شيء خلقناه بقدر، فهو كقولنا : هندٌ زيدٌ ضربها.٣٦

ووقف المعتزلة عند قوله تعالى: (زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...)٣٧وتأولوها، وبيّنوا أنَّ الله لا يزين للناس الحياة مثلما لا يضلّ العباد؛ لأنَّ ذلك قبيحٌ لا يجوز عليه سبحانه٣٨، وذكر الزمخشريُّ في هذه الآية قراءةً أخرى هي (زيّن للذين كفروا الحياةَ الدنيا..ز) بالبناء للفاعل٣٩، وفي هذه القراءة أُسند فعلُ التزيين إلى الله عن طريق المجاز، وقال: "يجوز أن يكون الله قد زيّنها لهم بأن خذلهم حتى استحسنوها وأحبّوها، أو جعل إمهال المزيّن له تزييناً"٤٠.

الأصل الثالث: الوعد والوعيد:

ومضمونه أن الله يجازي من أحسن بالإحسان، ومن أساء بالسوء، لا يغفر لمرتكب الكبيرة ما لم يتب، ولا يقبل في أهل الكبائر شفاعة، وهم مخلدون في النار٤١. والزمخشريُّ يؤكّد نفي الشفاعة للعصاة فيقول في قوله تعالى: (وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ)٤٢: "و(شيئاً) مفعول به، ويجوز أن يكون في موضع مصدر، أي: قليلاً من الجزاء... ومعنى التنكير أن نفساً من الأنفس لا تجزي عن نفس منها شيئاً من الأشياء، وهو الإقناط الكلّيّ القطّاع للمطامع... وقرأ قتادة (ولا يقبلُ منها شفاعةٌ)٤٣على البناء للفاعل، وهو الله عزَّ وجلَّ، ونصب الشفاعة ...فإن قلت: هل فيه دليلٌ على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة؟ قلتُ: نعم؛ لأنه نفى أن تقضي نفسٌ عن نفسٍ حقّاً أخلّت به من فعلٍ أو ترك، ثمَّ نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع، فعلم أنها لا تقبل للعصاة"٤٤. وهنا نرى الزمخشري استعان ببعض القراءات الشاذّة يروم نصرةَ مذهبِهِ الاعتزالي.

الأصل الرابع: المنزلة بين المنزلتين:

ثمّة آراء بين جماعات المسلمين في فاعل الكبيرة المؤمن؛ رأى الخوارجُ تكفيرَه، ورأى المُرجئةُ أنَّ حكمه إلى الله يوم القيامة، وأنه لا يضر مع الإيمان معصية، وذهب المعتزلةُ إلى أن فاعل الكبيرة في منزلةٍ بين منزلتي الكفر والإيمان،

ومصيره جهنّم خالداً فيها، وتأوّلوا بعض الآيات التي تؤكّد ما ذهبوا إليه٤٥، من ذلك مثلاً قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)٤٦ فقالوا إن عدم تعظيم النبي – صلى الله عليه وسلم – يحبط الأعمال مثلما يحبطها عدم تعظيم الله، وراحوا يوجّهون ذلك توجيهاً نحويّاً، مستدلّين ببعض القراءات القرآنيّة، قال الزمخشريُّ: "إنَّ قوله تعالى: (أن تحبط أعمالكم) في تأويل مصدر مفعول لأجله، ويحتمل هذا المصدر فيما يرجع إليه وجهين:

الأول: أن يتعلّق بمعنى النهي، فيكون المعنى: انتهوا عمّا نهيتم عنه لحبوط أعمالكم، أي: لخشية حبوطها، على تقدير مضاف محذوف...

الثاني: أن يتعلّق المصدر المؤول بالفعل نفسه، فيكون المعنى: إنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط... واستعان الزمخشريُّ بقراءة عبد الله بن مسعود (فتحبط أعمالكم)٤٧ ليقوّي ما اختاره وذهب إليه ويُدعِّمه، وقال إن هذه القراءة شاهد على ما يذهب إليه المعتزلة ؛ لأنَّ ما بعد الفاء مسبّب عمّا قبلها٤٨.

أما الأصل الخامس، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلم أقع فيما عدت إليه من كتب المعتزلة على شيء مما يتعلق بموضوع بحثي من استعانتهم بالتوجيه النحوي للقراءات القرآنية لخدمة هذا الأصل من أصولهم.

الخاتمة:

وختاماً نقول استطاعت المعتزلة توظيف علوم العربية، ولا سيما النحو والصرف في خدمة الاعتزال، وكانت تأويلاتهم للآيات القرآنية وقراءاتها مشروطة بموافقة هذه التأويلات والتوجيهات لأصول مذهبهم؛ لذلك نرى فيها تبايناً كبيراً من حيث الأخذ بما يتّفق مع قواعد اللغة العربية، فيأخذون أحياناً بالوجه القويّ الراجح الذي تؤيده قواعد اللغة العربية، ويأخذون أحياناً بالوجه الضعيف المرجوح أو المردود عند أكثر النحاة، لكنّهم في الأحوال كلِّها حاولوا تسخير ذلك لنصرة فرقتهم والذود عن أفكارهم ومعتقداتهم.

نتائج البحث:

- إنَّ شدّة تعصّب المعتزلة لمذهبهم دفعهم إلى الاعتماد على التوجيه النحوي للقراءات القرآنية في نصرته.
- تكلّف المعتزلة في التوجيه النحوي لخدمة مذهبهم الفكري.
- جنوح المعتزلة في أغلب الأحيان إلى القراءات الشاذّة، وإهمال القراءة الصحيحة الفصيحة في الآية الواحدة، في أحايين كثيرة، وأحياناً يأخذون بالقراءة المشهورة، فهم يعوّلون على القراءة التي تعضّدُ ما يؤمنون به سواء أكانت شاذّة أم متواترة؛ وذلك انتصاراً لمذهبهم.

ثبت المصادر والمراجع:

- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، للدمياطي (ابن البنّاء) صححه محمد علي الضبّاع، دار الندوة الجديدة، لاط، لات.
- الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد، لأبي حسين الخياط، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، ١٩٥٧م.
- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق أحمد عبد الموجود وزملائه، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.
- تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل) مع حاشية الشهاب الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.
- التفسير والمفسرون، د.محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م.
- تنزيه القرآن عن المطاعن، للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، دار النهضة الحديثة، بيروت، لاط، لات.
- تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق عبد السلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤ – ١٩٦٧ م.
- التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني، عني بتصحيحه أوتو يرتزل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.
- الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه، تحقيق د.عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، ط٢، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م.

- الحجّة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي، تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجاتي، ومراجعة أحمد يوسف الدقاق، وعبد العزيز رباح، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٩٨٤ – ١٩٩٩ منجّمة.
- الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جنّي، تحقيق محمد علي النجّار، دار الهدى، بيروت، ط٢، لات.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأحمد بن يوسف (السمين الحلبي) تحقيق د.أحمد محمد الخرّاط، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٦ – ١٩٩٤ منجّمة.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، امحمود الألوسي البغدادي، دار الفكر، بيروت، لاط، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.
- شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار بن أحمد، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، لاط، ١٤٠٥هـ.
- الكتاب، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه)، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، لاط، لات.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوّض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٨ = ١٩٩٨م.
- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لابن جنّيّ، تحقيق عبد الحليم النجار وعلي النجدي ناصف وعبد الفتاح شلبي، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ط٢، ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطيّة، تحقيق عبد العال السيد إبراهيم وآخرين، وزارة الأوقاف، الدوحة، ١٩٧٧ – ١٩٨٩م.
- مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع، لابن خالويه، نشره براجستراسر، طبع المطبعة الرحمانية بمصر، ١٩٣٤م.
- مشكل إعراب القرآن ، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق ياسين محمد السواس، دار اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط٢، ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.
- معاني القرآن، للأخفش الأوسط، تحقيق هدى محمود قرّاعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤١١هـ = ١٩٩٠م.
- معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق ومراجعة أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار السرور، مصر.
- معجم القراءات، د.عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م.
- الملل والنحل، لأبي الفتح الشهرستاني، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، لاط، لات.
- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، راجعه محمد علي الضبّاع، نشر المكتبة التجارية بمصر.

هوامش البحث

١ : انظر الملل والنحل ، لأبي الفتح الشهرستاني، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، لاط، لات. ٢٤٩/١.

٢: انظر الملل والنحل ٨٩/٢، والانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد، لأبي حسين الخياط، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، ١٩٥٧م. ص ١٢٦.

٣: انظر شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار بن أحمد، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، لاط، ١٤٠٥هـ. ص١٥١، والتفسير والمفسرون، د.محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط٢، ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م. ص٣٧٠.

٤ : النساء ١٦٤/٤.

٥ : وانظر تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق عبد السلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤ – ١٩٦٧ م. ٣٦٥/١٠ والبحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق أحمد عبد الموجود وزملائه، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م. ٣٩٨/٣، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأحمد بن يوسف (السمين الحلبي) تحقيق د.أحمد محمد الخرّاط، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٦ – ١٩٩٤ منجّمة. ١٦١/٤.

٦: الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جنّي، تحقيق محمد علي النجّار، دار الهدى، بيروت، ط٢، لات. ٤٥٨/٢.

٧: انظر معاني القرآن، للأخفش الأوسط، تحقيق هدى محمود قرّاعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤١١هـ = ١٩٩٠م. ٢٧٠/١ .

٨ : انظر الخصائص ٤٥٦/٢.

٩ : انظر مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع، لابن خالويه، نشره براجستراسر، طبع المطبعة الرحمانية بمصر، ١٩٣٤م.ص٣٠، والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوّض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٨ = ١٩٩٨م. ١٧٩/٢، والبحر المحيط ٣٩٨/٣، و معجم القراءات، د.عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م. ٢٠٣/٢.

١٠ : الزمر ٥٦/٣٩.

١١: انظر تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل) مع حاشية الشهاب الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م. ٢١٧/٨، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمحمود الألوسي البغدادي، دار الفكر، بيروت، لاط، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م. ١٨/٢٤، ومعجم القراءات ١٧٧/٨.

١٢ : الكشاف ٣١٥/٥.

١٣ : آل عمران ١٨/٣ – ١٩.

١٤: انظر الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه، تحقيق د.عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، ط٢، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م. ص١٠٧، ومختصر ابن خالويه ١٢، والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م. ٣٣٨/١، والتيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني، عني بتصحيحه أوتو يرتزل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م. ٨٧، والنشر في القراءات العشر، لابن الجزري، راجعه محمد علي الضبّاع، نشر المكتبة التجارية بمصر. ٢٣٨/٢، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، للدمياطي (ابن البنّاء) صححه محمد علي الضبّاع، دار الندوة الجديدة، لاط، لات. ١٧٢، ومعجم القراءات ٤٦١/١.

١٥: انظر الحجّة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي، تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجاتي، ومراجعة أحمد يوسف الدقاق، وعبد العزيز رباح، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٩٨٤ – ١٩٩٩ منجّمة. ٢٢/٣.

١٦ الكشاف ٥١٧/١.

١٧ : انظر الحجة للقراء السبعة ٢٣/٣.

١٨ : انظر الكشاف ٥٣٧/١.

١٩ : البقرة ٩/٢.

٢٠ : انظر الكشاف ١٧٠/١.

٢١ : انظر الحجة لابن خالويه ٦٨، والحجة للقراء السبعة ٣١٥/١ وما بعدها، ومعجم القراءات ٤١/١.

٢٢ : انظر شرح الأصول الخمسة ص ٢٩٩، والتفسير والمفسرون ص ٣٧٠.

٢٣ : الأعراف ١٥٦/٧.

٢٤ : قراءة الجماعة بالشين المعجمة، وقراءة زيد بن علي وطاووس وعمرو بن فائد بالسين المهملة، انظر المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لابن جنّي، تحقيق عبد الحليم النجار وعلي النجدي ناصف وعبد الفتاح شلبي، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ط٢، ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م. ٢٦١/١، ومختصر ابن خالويه ٤٦، والبحر المحيط ٤٠٢/٤.

٢٥: المحتسب ٢٦١/١.

٢٦ : البحر المحيط ٤٠٢/٢.

٢٧ : الفلق: ١/١١٣ -٢.

٢٨ : انظر تنزيه القرآن عن المطاعن، للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، دار النهضة الحديثة، بيروت، لاط، لات. ص٤٨٨.

٢٩ : انظر الكشاف ٤٦٤/٦.

٣٠ : وهي قراءة عمرو بن فائد وعمرو بن عبيد وأبي حنيفة، انظر مختصر ابن خالويه ٧٩، ومشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق ياسين محمد السواس، دار اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط٢، ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م. ٢٣٩/٢، وروح المعاني ٣٠، ومعجم القراءات ٦٤٥/١٠.

٣١ : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطيّة، تحقيق عبد العال السيد إبراهيم وآخرين، وزارة الأوقاف، الدوحة، ١٩٧٧ – ١٩٨٩م. ٦٠٨/٥.

٣٢ : مشكل إعراب القرآن ٥١١/٢.

٣٣ : القمر ٤٩/٥٤.

٣٤ : شرح السيرافي على حاشية الكتاب، (الكتاب، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه)، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، لاط، لات). ١٤٨/١.

٣٥ : وهي قراءة أبي السمّال ، انظر معاني القرآن للأخفش ٥٢٩/٢، والمحتسب ٣٠٠/٢، والبحر المحيط ١٣٨/٨، ومعجم القراءات ٢٤٠/٩.

٣٦ : انظر المحتسب ٣٠٠/٢.

٣٧ : البقرة ٢١٢/٢.

٣٨ : انظر تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٤٨.

٣٩ : أي المبني للمعلوم، وهي قراءة مجاهد وحميد بن قيس وأبيّ بن كعب والحسن، وهي في مختصر ابن خالويه ص١٣، ومعاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق ومراجعة أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار السرور، مصر.١٣١/١، والبحر المحيط ١٢٩/٢ ، ومعجم القراءات ٢٩٠/١.

٤٠ : الكشاف ٤٢٠/١.

٤١ : انظر شرح الأصول الخمسة ص ٦٠٩، والتفسير والمفسرون ص٣٧٠.

٤٢ : البقرة ٤٨/٢.

٤٣ : وهي أيضا قراءة سفيان، انظر مختصر ابن خالويه ص٥، والحجة في القراءات السبع ص٧٦، والكشاف ٢٦٤/١، والبحر المحيط ٣٤٨/١ ، ومعجم القراءات ٩٥/١.

٤٤ : الكشاف : ٢٦٤/١.

٤٥ : انظر شرح الأصول الخمسة ص٦٩٥.

٤٦ : الحجرات ٢/٤٩.

٤٧ : انظر معاني القرآن للفراء ٧٠/٣، والكشاف ٥٦٠/٥، والمحرر الوجيز ٤٨٧/١٣، والبحر المحيط ١٠٦/٨، وروح المعاني ١٣٥/٢٦.

٤٨ : الكشاف ٥٦٠/٥.